مرونة الاشتقاق في اللغة العربية ودلالته الحضارية

للأستاذ / محمد رشاد خليل

... الأمة العربية التى شرفها الله بحمل رسالة الإسلام ، وتبليغها الى الناس ، أمة لم يكشف النقاب عن حقيقتها بعد ، وذلك بسبب عوامل تاريخية قديمة وحديثة ساعدت على طمس هذه الحقيقة ، وهى عوامل كثيرة ليس هنا مجال بحثها . ولكن كشف حقيقة هذه الأمة أصبح الآن ضرورة لازمة بصرف النظر عن الظروف والملابسات التى طمست حقيقة هذه الامة .

وكشف هذه الحقيقة بمسئولية إسلامية فى المقام الأول ، لان فهم الإسلام على الوجه الصحيح يستلزم فهم الأمة التى حملته وبلغته ، وفهم الظروف التى أحاطت بها ، وفهم مناهجها فى التفكر والنظر ، وطرائقها فى الحياة ، لان القرآن نزل بلغة هذه الأمة ، وعلى أساس من مصطلحاتها ، ولأن شريعة الإسلام قامت على أساس من مناهج هذه الأمة فى النظر والاستدلال ، كما قال بذلك سلفنا الصالح ، يقول الإمام الشافعي « وما جهل الناس

واختلفوا إلا بتركهم لسان العرب وميلهم الى لسان أرسطاليس » (١) ويعلق السيوطى على هذا القول بعد ايراده بقوله « وأشار الشافعى بذلك الى ما حدث فى زمن المأمون من القول بخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وغير ذلك من البدع ، وان سببها الجهل بالعربية ... والجامع لجميع ذلك قوله : لسان العرب الجارى عليه نصوص القرآن والسنة وتخريج ما ورد فيها على لسان يونان ومنطق أرسطاليس ، الذى هو فى حيز ، ولسان العرب فى حيز ، ولم ينزل القرآن ولا أتت السنة الا على مصطلح العرب ومذاهبهم فى المحاورة والتخاطب ، والاحتجاج والاستدلال ، لا على مصطلح اليونان ، ولكل قوم لغة واصطلاح » (٢) من أجل ذلك ذهب جمهور علماء اصول الدين والفقه الى ضرورة اقامة مناهج البحث واستنباط الأحكام على أساس من اصطلاح العرب واسلوبهم في النظر والتفكير ، وعلى هذا الساس أصبحت أبحاث اللغة قسما رئيسيا فى جميع مباحث الأصول : الى أن جاء بعض المتأخرين فانحرفوا عن هذا الاتجاه ، وأرادوا أن يجعلوا من المنطق اليونانى أساسا لمناهج البحث فى الإسلام ، وكانت هذه بداية التصدع لأركان الثقافة العربية الإسلامية الشامخة ، وكان من مضاعفات ذلك أن يعتمد الأصوليون المتأخرون على المنطق اليونانى اعتمادا كاملا ، حتى لقد جعلوه أساسا فى مباحث الدراسات الأصولية والفقهية ، مما أدى إلى جمود الفكر ، وركاكة الأساليب ، وطمت الازمة وعمت حين اعتمد النحويون واللغويون هذا المنطق أساسا للدراسات النحوية واللغوية » (٣) .

وكشف حقيقة الامة العربية هو في المقام الثانى مسئولية علمية لأن مهمة العلم الأساسية هى كشف الحقائق وبيانها باعتبارها أن الحقائق الصحيحة هى الاساس السليم للمعرفة الإنسانية الصحيحة ، ولئن كان الكشف عن حقائق التاريخ الانسانى هاما بصرف النظر عن الامم والأجناس فان كشف حقيقة الامة العربية من الناحية الانسانية الخالصة أولى من غيرها لان دور هذه الأمة ومسئوليتها الإنسانية هو أكبر وأخطر الادوار فى تاريخ الانسانية ، لأن المسئولية التى وكلت إليها وهى الهداية ، هى أخطر المسئوليات الانسانية على الاطلاق ، لقد اتجهت الابحاث التاريخية بهوى مغرض بصفة أساسية الى تاريخ الحضارات الغربية من اغريقية ورومانية ومسيحية غربية .. وعلى هامش هذه الحضارات اتجه البحث اتجاها مغرضا الى الحضارات الهندية والبابلية والمصرية .. وذلك لابراز المظاهر الوثنية التى تمجد الانسان وتؤله حسب مفاهيم الحضارة الغربية الحديثة فى دور الانسان وقيمته ، هذا بينما أعرض البحث عامدا عن الحضارة الانسانية الحقيقية التى تتمثل فى حقيقة الامة العربية وفى اسهامها الانسانى فى تحمل التكليف الربانى بتبعاته التى تنوء بحملها الجبال والذى يستهدف من خلال رسالات الإسلام التى تواترت فى الأمة العربية وختمت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الى وضع الانسان فى موضعه الصحيح من خلق الله دون افراط او تفريط ، والى تحقيق كرامة الانسان من خلال العبودية الحقة للإله الواحد الأحد صاحب الخلق والامر ، والذى خلق الانسان وعلمه البيان ، ونفخ فيه من روحه وفضله على العالمين .

وكشف هذه الحقيقة هو فى المقام الثالث مسئولية قومية عربية لان من واجب كل قوم أن يتعرفوا على حقيقة وجودهم من خلال النظر الصحيح الى اصول تاريخهم ، حتى يكون

عملهم من اجل يومهم وغدهم قائما على اساس من الاستمرار التاريخي الوثيق . ومن المؤلم ان تكون غالبية الذين يرفعون شعار القومية العربية من اكثر الناس جهلا بحقيقة هذه الامة وتكوينها ودورها ، وان يكون هذا الجهل سببا فى الاضطراب والتخبط فى ضلالات الجاهليات العرقية الحديثة التى أغرقت العالم بطوفانها واحرقته بنيرانها ، ولو انهم بحثوا لعرفوا ان خصائص الامة العربية لا ترجع — حسب المفهوم العرقى الحديث — الى خصائص عرقي تقوم على الدم او اللون . وانما ترجع فى الأصل الى خصائص انسانية هيأ الله لها أسباب الرقى والنماء والازدهار والعطاء فى ظروف بيئيّة وانسانية وتاريخية استخلصت من الانسان العربى خير ما فى الإنسان عامة ، وجعلت منه قدوة للناس ومثلا مضروبا على خصوبة الامكانيات الانسانية العامة التى منحها الله لجميع البشر على قدم المساواة ، وذلك حتى يتسابق الناس — كل الناس — على هدى هذه القدوة البشرية فى استكشاف خير ما فى عقولهم وقلوبهم من قدرات وامكانيات ، مما استودعه الله فى أصل فطرهم بحكم خلقتهم وتكوينهم ، بتوجيه هداية الوحى ، وبمعونة الله تعالى لهم بدعلى كتبه ورسله ، وهذا هو ما نفهمه من معنى قوله تعالى « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدا عليكم .. » البقرة : ١٤٣ .

ولقد كان من أبرز العوامل الكثيرة التى عملت على طمس حقيقة الأمة العربية غير ما أشرنا اليه من الغرض والهوى انصراف الباحثين الى التعرف على حقيقة هذه الامة من خلال كتب الاخبار وهى قليلة الغناء لما فيها من قصُور واضطراب ، ولضعف قيمتها التاريخية بسبب عدم الاطمئنان الى كثير مما ترويه عن العرب قبل الاسلام ، يضاف الى ذلك القصُور والفهم القاصر لنوعية المصادر التاريخية والحضارية ، والذى ينصرف عنه كثير من الباحثين الى الوثائق والمصادر المادية من اثار العمارة او الزراعة او الفنون او النقوش وما شابه ذلك ، والعرب بحكم ظروفهم التاريخية — خاصة عرب الحجاز ونجد — وهم فى الاساس بدو رحل لم يكن نشاطهم الحضاري فى هذا الباب الذى ارتبط بقيام المجتمعات الزراعية فى اودية الانهار ، او بقيام المجتمعات التجارية على شواطىء البحار .

لذلك غفل هؤلاء المؤرخون عن المصادر الحقيقة لهذه الأمه والتى تتمثل أساسا في اللغة وهى دليل العقل وبيانه وترجمانه .

واللغة أصدق مفتاح للكشف عن حقائق الامم ، ولقد كانت العربية خاصة أصدق اللغات فى الكشف عن حقيقة أهلها ، سواء فى مفرداتها او تراكيبها او اساليبها او مصطلحاتها او مضامينها .. ولقد حفظ الله تعالى هذه اللغة فى كتابه العزيز فخطط لنا بذلك أوثق المصادر فى حقيقة هذه الامة ، كما حفظها فى كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب وأبلغهم ، كما حفظها فى كلام أصحابه رضوان الله عليهم وهم الجيل الخالص من العرب الذين يمثلوا أصدق تمثيل خصائص هذه الامة ومناهجها فى التفكير وطرائقها فى الحياة ، كما حفظها فى هذه البقية الباقية من شعر العرب وكلامهم فى جاهليتهم بما فيه من علم وحكمة وعقل وخلق وبلاغة وبيان ، ثم فى هذه الموسوعة الهائلة من كلام الاعراب التى امتلأت بها معاجم اللغة وكتبها ، والاعراب هم مادة هذه الامة ، وأصلها الدال عليها

وصورتها الناطقة بها .

ولكنا نعترف بأن استخلاص المحققين من هذه المصادر أمر صعب لأن القراءة العربية لهذه المصادر لم تعد متيسرة بعد أن قطعت العجمة والفلسفة ومنطق اليونان عليه الطريق ،حتى أصبحنا حين نقرأ هذه المصادر من وراء هذه الحجب نحرف الكلم عن مواضعه . والتبصير بلغة العرب فى العصر الحديث لقطعه قواطع العجمة والفلسفة ومنطق اليونان الذى غلب على العربية لغة وبلاغة ونحوا ، وغلب على علوم الاسلام — عند المتأخرين — عقيدة وفقها ، وتسرب حتى الى تفسير كتاب الله ، هذا شأن العالم باللغة ، فما بالك بالمؤرخ الحديث الذى لا يعْرِفُ من طرائق النظر التاريخي الا النظر فى كتب الاخبار أو معالم الاثار المادية ، وليست له دراية بعلوم العربية والعلوم الإسلامية ، وهى المصادر الحقيقية ذات الحجية التاريخية والحضارية للأمة العربية .. ! ؟ .

إن الذى يريد استعمال المصادر اللغوية للتأريخ العربى عليه أن يتمرس بأساليب هذه اللغة فى مصادرها الأساسية ، وأن يتمرس بالعلوم الاسلامية التى ارتبطت بها . وذلك يحتاج الى اعداد شاق ومران طويل على قراءة النصوص العربية وتتبعها فى مفرداتها وتراكيبها وأساليبها حتى يستخرج منها دلالتها التاريخية والحضارية وذلك يستلزم معايشة هذه اللغة فى مصادرها الاصلية معايشة طويلة تمكن صاحبها من أن يحس بهذه اللغة إحساس أهلها الاولين بها ، وأن يديرها فى عقله ولسانه كما كانوا يديرونها فى عقولهم وألسنتهم ، وأن يقع بها على معانيها الحقيقة فى عقولهم ونفوسهم ، وذلك مطلب عسير ، لأن أساليب التعليم التى حولت اللغة العربية من الدربة والممارسة الى القاعدة المنطقية قد حطمت السليقة العربية فى عقول أهلها ، ثم جاء هجر العربية كليا أو جزئيا فى مراحل التعليم العلمانى الغربي الذين حل محل التعليم الإسلامى العربي في البلاد العربية ليقضى على البقية الباقية من صلة العرب بلغتهم ، ولتجعلهم يتكلمون لغات اجنبية مختلفة — تركيبا ودلالة — وان كانت مكتوبة — شكلا — بحروف عربية .

ولئن كنت قد تصديت لهذا المبحث الوعر فليس معنى هذا انى ادعى لنفسى انها قد تهيأت له على الشروط التى ذكرتها ، فوالله الذى لا اله إلا هو ، لصبى من صبيان الأعراب الذين كانوا يلعبون فى مرافع اعراب هذه الامة بواديها ، كان أقدر منى على امتلاك ناصية هذه اللغة والتصرف فيها .. ، على ان ذلك الاقرار بالعجز لا يجوز ان يصرفنا عن المحاولة فى حدود الممكن ، مع الاجتهاد فى الاستعداد ، لأن هذا العمل من الفرائض التى تلزمنا بها مسئوليتنا فى هذه الامة ، ولعل التنبيه الى الطريق يغرى أجيالا من الباحثين بالسير فيه ، ولعل القدر الذى يتاح استكشافه من الحقائق يعين على تصحيح الكثير من الاخطاء والاوهام والأباطيل التى سدت الطريق على التعرف السليم على نوعية هذه الأمة وقيمتها ومكانتها .. وعليه فانى أتقدم بمحاولة على هذا الطريق من خلال دراسة الاشتقاق ودلالته ، نعرض بها أسلوبا فى استخدام اللغة كأداة للبحث التاريخي الحضاري .

معنى الاشتقاق :

جاء فى شرح التسهيل : الاشتقاق أخذ صيغة من اخرى مع اتفاقها معنى ومادة

أصلية ، وهيئة تركيب لها ، ليُدلّ بالثانية على معنى الأصل ، بزيادة مفيدة ، لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة ، كضارب من ضرب ، وحَذِرٌ من حَذر . (٤)

طريقته :

وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة ، حتى يرجع منها الى صيغة هى أصل الصِّيغ دلالة اطراد او حروفا غالبا ، كضرْب فانه دال على مطلق الضرب فقط ، أما ضارب ، ومضروب ، ويَضرب واضْرِب ، فكلها اكثر دلالة وأكثر حروفا ، وضَرب الماضى مساو حروفا وأكثر دلالة ، وكلّها مشتركة فى « ض ر ب » وفى هيئة تركيبها وهـذا هو الاشتقاق الأصغر المحتَجُّ به » (٥) ، وهذه طريقة البصريين فى رد الاشتقاق الى المصدر أما الكوفيون الذين يردون الاشتقاق الى الفعل الماضى فهم يجعلون أصل صيغة الاشتقاق هو (ضَرَبَ) بالفتح التى هى الفعل الماضى وليس (ضَرْب) بالسكون وهو المصدر .

هناك اشتقاق آخر يسمى الاشتقاق الأكبر ابتدعه أبو الفتح ابن جنى وليس معتمدا فى اللغة وهو الذى يحتفظ فيه بالمادة دون الهيئة مثل (ق و ل) و (و ل ق) ، وقد اهملت العرب هذا النوع من الاشتقاق لذلك فنحن لا نعول عليه ولا ندخله فى موضوع بحثنا ، والاشتقاق الأصغر الذى عرفته العرب هو أساس موضوع بحثنا ، وهو الذى بنيت عليه مادة اللغة العربية كلها ، وهو فى نفس الوقت يكشف لنا عن المستوى العقلى من خلال مجموعة من العمليات العقلية الكثيرة ذات الدلالة البالغة على الاقتدار والتفوق العقلى مثل : الملاحظة الجمع ، الترتيب ، المقارنة ، الاستنتاج ، الخيال ، التمييز ، دقة الاحساس ، سلامة الادراك ، القدرة على التجريد والمجاز ، وإدراك العلاقات .. وكل هذه العمليات العقلية تقع عليها من خلال دراستنا للاشتقاق الأصغر ، على الصورة العلمية التى تتم بها أدق العمليات العلمية التجريبية .

المنطق اليونانى واللغة العربية

ولكنا لا نستطيع أن نتصور هذه العلاقات إلا اذا نظرنا للاشتقاق نظرة لغوية ، مستبعدين جهد الطاقة النظرة المنطقية للغة العربية والا اذا نظرنا للاشتقاق من وجهة نظر تاريخية فى ضوء النصوص الموجودة فعلا ، لا من وجهة نظر منطقية ، فالموازين الصرفية والقواعد النحوية قد وضعت بعد الإسلام متأثرة بالمنطق اليونانى ، ومهما كان من اعتماد هذه الموازين والقواعد على النصوص ، فقد غلب التصور المنطقى على عقلية الذين وضعوا هذه القواعد ، وأقاموا هذه الموازين .. ولقد أدرك علماء السلف خطر المنطق اليونانى على العربية والإسلام ، ورأوا فيه منطقا خاصا بلغة قوم هم اليونان ، وهو يستمد مصطلحاته وتصوراته من هذه التى تختلف اختلافا بينا عن اللغة العربية التى لها منطقها الخاص ، والتى نزل القرآن وجاء الإسلام على أساس من مصطلحاتها ، لذلك رفضه جمهور علماء المسلمين وهاجموه ، يقول ابن تيمية : « يقولون : إن المنطق « ميزان العقلية » ومراعاته « تعصم الذهن عن أن يغلط فى فكره » ... وليس الأمر كذلك فإن العلوم العقلية تعلم بما فطر الله عليه بنى آدم من أسباب الإدراك ، لا تقف على ميزان وضعى لشخص معين ، ولا يُقلَّد فى العقليات ... وجماهير العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق من غير تعلم منهم لوضع

أرسطو ، وهم إذا تدبروا انفسهم وجدوا أنفسهم تعلم حقائق الاشياء بدون هذه الصناعة الوضعية ... ثم إن هذه الصناعة — زعموا — انها تفيد تعريف حقائق الاشياء ، ولا تعرف الا بها ، وكلا هذين غلط »(٦)

ولسنا هنا فى مجال استعراض النكبة التى حلت بالعربية والإسلام بسبب المنطق اليونانى ، وإنما نكتفى فقط فيا يختص من ذلك بموضوعنا ، وسنرى نموذجا لذلك من اختلاف الكوفيين والبصريين حول أصل الاشتقاق .

آراء الكوفيين والبصريين فى أصل الاشتقاق :

اختلف الكوفيون والبصريون حول أصل الاشتقاق هل هو الفعل أو المصدر ، وهذا ملخص بآرائهم : (٧)

رأي الكوفيين :

ذهب الكوفيون الى ان أصل الاشتقاق هو الفعل ، واحتجوا لرأيهم بما يأتى :

١ — ان المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله والمصدر فرع .

٢ — ان الفعل يعمل فى المصدر .

٣ — ان المصدر يذكر تأكيدا للفعل .

٤ — ان المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل .

٥ — ان المصدر انما سمى مصدرا لا لصدور الفعل عنه كما يقول البصريون ، وانما لانه مصدور عنه ، فدل ذلك على أن الفعل أصل والمصدر فرع لأنه تابع له فيا سبق .

رأى البصريين :

وذهب البصريون الى أن أصل الاشتقاق هو المصدر ، واحتجوا لرأيهم بما يأتى :

١ — ان المصدر يدل على زمان مطلق ، والفعل يدل على زمان معين .

٢ — ان المصدر اسم ، والاسم يقوم بنفسه ويستغنى عن الفعل . أما الفعل فانه لا يقوم بنفسه ويفتقر الى الاسم .

٣ — ان الفعل بصفته يدل على شيئين : الحدث ، والزمان المحصل ، والمصدر يدل على شىء واحد وهو الحدث .

٤ — ان المصدر له مثال واحد نحو الضرب والقتل ، والفعل له أمثلة مختلفة .

٥ — ان الفعل يدل بصيغته على ما يدل عليه المصدر وليس العكس .

٦ — ان المصدر لا يجرى على سنن فى القياس ولوكان مشتقا من الفعل لما اختلف فى اسماء الفاعلين والمفعولين .

٧ — ان المصدر لو كان مشتقا من الفعل لدل على ما فى الفعل من الحدث والزمان وعلى معنى ثالث .

٨ — ان المصدر لو كان مشتقا من الفعل لوجب حذف الهمزة فى مثل اكرم إكراما ، كما حذفت فى اسم الفاعل والمفعول مُكرِّم ومُكرَّم .

٩ — ان الاصل فى تسمية المصدر هو الموضوع الذى يصدر عنه .

وكل هذا دليل على ان المصدر أصل والفعل فرع .

نقد أدلة البصريين والكوفيين :

وأول ما نلاحظه على أدلة الفريقين انها أدلة مصنوعة صناعة منطقية ، إلا أنا نلاحظ أن أدلة الكوفيين أقل إغرَاقا فى الصناعة المنطقية من أدلة البصريين الذين كانوا أكثر تأثرا بالمنطق اليونانى من الكوفيين ، ولقد اصبح الكوفيون لآرائهم بحجة قوية لأنها حجة تقوم على الاستقرار لا على المنطق وهى قولهم ان المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل ، وهى حجة تهدم حجة البصريين المنطقية وهى حجتهم الاساسية والتى تقول بان المصدر أصل لانه يدل على زمان مطلق ، بينما الفعل يدل على زمان مقيد ، وذلك لأن اطلاق زمان المصدر يجعله مبهما بصورة لا تجعله صالحا للاشتقاق فى العربية حسب مفهوم البصريين لعلاقة المصدر بالزمن ، والعرب لا يعرفون هذا النوع من المطلقات المبهمة التى اختصت بها العقلية الاغريقية وارتبط بها منطقهم وفلسفتهم ارتباطا أفسد الفكر الاغريقي كما أفسد فكر انسانى ارتبط به واعتمد عليه .

المطلق الاغريقي فى نظر ابن تيمية :

ولقد تنبه ابن تيمية الى استحالة هذا المطلق الاغريقي وهاجمه هجوما عنيفا بسبب نتائجه السيئة فى الفلسفة والدين على السواء ، ونفى ان يكون هناك «وجود مطلق بشرط الاطلاق ، أو بشرط سلب الامور الثبوتية او لا بشرط مما يعلم بصريح العقل انتفاؤه فى الخارج وانما يوجد فى الذهن ، وهذا مما قرروه فى منطقهم اليونانى ، وبينوا ان المطلق بشرط الاطلاق كانسان مطلق بشرط الاطلاق ، وحيوان مطلق بشرط الاطلاق ، وجسم مطلق بشرط الاطلاق ، ووجود مطلق بشرط الاطلاق : لا يكون الا فى الاذهان دون الأعيان» (٨)

تصحيح مذهب البصريين فى الزمن المطلق :

وعليه يمكن القول بأنه هناك زمن مطلق بشرط الاطلاق لأن هذا النوع من الزمن لا وجود لها فى الخارج وانما هو موجود فى الاذهان فقط لأن «المجردات — كما يقول ابن تيمية — هى الكليات التى تجردها النفس عن الأعيان الشخصية ..» (٩) «والمطلقات لا تكون مطلقة الا فى الأذهان .. فاذا قدرت فى النفس جسما حساسا متحركا بالارادة ناطقا : كان هذا المتصور فى الذهن مركبا من هذه الامور ، وان قدرت فى النفس حيوانا ناطقا كان مركبا من هذا وهذا ، وان قدرت حيوانا صاهلا كان مركبا من هذا وهذا . وان قلت «ان الحقائق الموجودة فى الخارج مركبة من هذه الصور الذهنية» كان هذا معلوم الفساد بالضرورة . وان قلت «ان هذه مطابقة لها وصادقة عليها» فهذا يكون صحيحا اذا كان ما فى النفس علما لا جهلا» (١٠) وعليه فانا نستطيع القول بأن الزمن المطلق لا وجود له الا فى الذهن اما فى الخارج فالزمن هو هذه الحقيقة المعنية التى تتمثل فى الاستمرار والحركة .

كذلك يمكن القول بأن المصدر لا يدل على زمان وانما هو موجود ذهنى تكون من ملاحظة أعيان الفعل فى الخارج مثل ضرَب بالفتح ويضرب وضارب ومضروب فالمصدر وهو الضرب اسم مجرد من هذه الافعال المعنية فى الخارج لا اسما إلا على زمان مطلق ، ومن هنا يجوز الاشتقاق من المصدر كما يجوز الاشتقاق من الفعل لا على اعتبار انه دال على زمان

مطلق وانما على اعتبار انه اسم مجرد من افعال معينة فى الخارج ، فيلزم من ذلك ان يكون الفعل هو الاصل المعين للمصدر كما قال الكوفيون وليس العكس .

وعليه يمكن القول بأن الادعاء بأن الفعل وحده هو أصل الاشتقاق أو أن المصدر وحده هو أصل الاشتقاق ، انما هو تحكم محض لا يقوم عليه دليل من واقع اللغة نفسها وهو الواقع الذى سنعرض له بعد حين .

أراء حديثه فى أصل الاشتقاق :

بدأ الجدل حول أصل الاشتقاق فى العربية مرة اخرى على يد المستشرقين ، وغيرهم من الباحثين العرب ، وهاك ملخص ارائهم فى هذه المسألة .

رأى ولفنسون :

ذهب ولفنسون مذهب الكوفيين فى القول بأن الاشتقاق لا يكون الا من الفعل وأسس رأيه هذا على دراسة مقارنة فى اللغات فقال : « ان من خصائص اللغات السامية أن أغلب الكلمات مشتقة من أصل ثلاثى وثنائي وهذا الاصل فعل يضاف الى أوله أو آخره حرف أو أكثر .

نشأ من اشتقاق الكلمات من أصل هو فعل أن سادت العقلية الفعلية — إذا صح هذا الاستعمال — على اللغات السامية أى أن لأغلب الكلمات فى هذه اللغات مظهرا فعليا حتى فى الاسماء الجامعة والالفاظ الدخيلة من اللغات الاجنبية ، فقد اخذت هذه الكلمات مظهرا فعليا ايضا . وقد رأى بعض علماء العربية ان المصدر الإسمى هو الاصل الذي يشتق منه أصل كل الكلمات والصيغ ولكن هذا الرأى خطأ — فى رأينا — لأنه يجعل أصل الاشتقاق مخالفا لاصله فى جميع اخواتها السامية .

وقد تسرب هذا الرأى الى هؤلاء العلماء من الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية والأصل فى الاشتقاق عند الآريين أن يكون من مصدر اسمى .

أما فى اللغات السامية فالفعل كل شىء فمنه تتكون الجملة ، ولم يخضع الفعل للإسم والضمير بل نجد الضمير مسندا الى الفعل ومرتبطا به ارتباطا وثيقا .

وعلى كل حال فنظرية العقلية فى اللغات السامية هى نظريتنا الخاصة اذ لم يشر اليها أحد من علماء الافرنج » (١١)

نقد فؤاد حسنين لادعاء ولفنسون :

وقد نقد فؤاد حسنين ادعاء ولفنسون بأنه صاحب اكتشاف (النظرية الفعلية) فى الاشتقاق العربي فقال « ان هذا الرأى قد شغل العلماء وقتا طويلا فبعضهم أفرد له الابحاث العديدة فى مجلات المستشرقين ، والبعض الآخر لم يقنع بذلك فكتب فيه الكتب الكثيرة وكان ذلك فى القرن التاسع عشر ، فالنظرية العقلية ليست وليدة القرن العشرين وليست من نتائج قريحتك (يقصد ولفنسون) بل هى ثمار القرن التاسع عشر فى اوربا ونتيجة من نتائج أبحاث جمهرة من أكابر مستشرقى المانيا » (١٢)

رأى كرملى وزيدان :

ذهب انستاس كرملى الى القول « بأن الثنائية Biliteroliome هى

النظرية التي تقول بأن الاصول فى العربية — وكذلك فى اخواتها السامية — ليست هى الالفاظ ذوات الحروف الثلاثية ، بل ذوات الحرفيين اذ من شأن الثلاثيات ان ترد الثنائيات » (١٣) .

وقد دافع جرجى زيدان عن هذه النظرية فقال : « الا الفاظ المانعة (ويقصد بها المحدودة الدلالة) الدالة على معنى فى نفسها ، يعود معظمها بالاستقراء الى اصول ثنائية (أحادية المقطع) تحاكى أصواتا طبيعية [نسب ابن جنى هذا القول الى بعض علماء اللغة ، فقال وذهب بعضهم الى ان أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعة ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ... [(١٤) ، وتشتمل هذه الألفاظ على الاسم والفعل وما يشتق منها ، واللغويون يردون كلا من الاسم والفعل الى اصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية . ولا يردون هذه الأصول قابلة الرد الى أقل من ذلك وعندى أنها قابلة للرد ولو بعد العناء » (١٥)

رأى مراد كامل :

أيد مراد كامل رأى كرملى وزيدان بقوله « ان أقدم الأسماء صيغة فى اللغات السامية هى الاسماء الثنائية ، وقد حافظت العربية على بنائها الأصلى فى كثير منها غير أنها اشتقت من بعضها صيغا جديدة » (١٦) لكنه غير مقتنع بأن الأسماء الثنائية هى وحدها الأصل لذلك يقول « وهناك أسماء ثلاثية أصلية نجدها مشتركة فى اللغات السامية وهى على الأخص أسماء الاشياء المادية المنظورة الملموسة منها للحيوان : النمر والذئب والإبل والثور والحمار والكلب والخنزير والنسر والذباب ، ومنها للنبات : العنب والثوم والقثاء والكمون ، ومنها : الأعضاء والجسم والرأس والعين والاذن والأنفس والسن والشعر والشفة والظفر والركبة والذنب والقرن واللب والكلية والكتف ، ومنها لغير ذلك : السماء والشمس والارض والحقل والبئر والبيت والعمود والقوس والحبل والإناء .. وهذه الاسماء كلها لم تشتق من الافعال والدليل على ذلك :

١ — انه فى كثير منها لا يكاد معناها ان يحتمل الاشتقاق من فعل أصلا ، فمن أى فعل تشتق أسماء كالذئب والقدم والرأس والأرض ؟ ولماذ نفترض ان يكون هناك فعل أسبق من هذه الاسماء وأمثالها ؟ .

٢ — ان بعض هذه الأسماء تخالف الافعال التى يحمل معناها الاشتقاق منها مخالفة تامة مثل : الاذن فعلها السمع ، وكذلك العين وفعلها رأى .

٣ — لا نجد صلة بين اوزان هذه الاسماء ومعانيها ، حيث اننا نرى الاسماء المتقاربة فى المعنى متقاربة فى الوزن نحو : الثور والحمار ، او العين والاذن ، ولو اشتقت من افعال لكان لكل معنى وزن واحد بنيت عليه الاسماء او أوزان قليلة » (١٧)

ويذهب مراد كامل الى ان « بعض الصيغ الرباعية مثل فعلل قديمة جدا فى اللغات السامية ومن اوزانه : عكبر وعقرب وأرنب وهى سامية الأصل .. وان كان لا يمنع ان تكون الباء فى عقرب وأرنب علامة الحقت للدلالة على معنى كل منها » (١٨)

كما يذهب الى ان الاشتقاق يقع كذلك من الافعال فيقول « من اسماء الاشياء المادية ما اشتق من الافعال مثال ذلك اسماء الآلة والمكان وهو سامى الأصل ، ووزن مفعال للآلة أصله فعال ثم الحقت به الميم ، وفعال أقدم وزن لاسم الآلة فى اللغات السامية ومنه : سنان ونطاق ولسان » (١٩)

ثم يذهب فى نهاية الامر الى الاشتقاق بالنسبة للعربية بالغ المرونة حيث يقول « وأكثر اللغات السامية أمسكت عن اشتقاق الاسماء الجديدة فى زمان قديم جدا إلا على القليل من الاوزان كالمصادر والانساب فأصبحت جملة أسمائها محدودة ، لا يزاد عليها إلا القليل فى المدة الطويلة ، فاشتقاق الاسماء فيها ميت أو يكاد . وداومت اللغة العربية تشتق الاسماء الجديدة الكثيرة على الاوزان المتنوعة . وجاز للشاعر ان يرتجل استخدامها ، وكانت جملة الاسماء محدودة قابلة للزيادة والنقصان فى كل وقت ووجد عدد من الأسماء فى الواقع وان لم يوجد فى الاستعمال ثم جمع اللغويون الكلمات المروية فى الشعر عند العرب وضبطوا معانيها » (٢٠)

ومما تجدر ملاحظته أن آراء مراد كامل فى الاشتقاق ومرونته هى أدق الآراء انطباقا على حقيقة المادة المعجمية للغة العربية على نحو ما سنعرض له الآن . **نظرة معجمية الى مصادر الاشتقاق :**

حين ننظر الى المادة اللغوية بعيدا عن جدل النحويين نجد ان أصل الاشتقاق فى العربية مرن الى اقصى درجات المرونة ، كما نجد ان الاشتقاق ليس **عملية منطقية تنطلق من قواعد تحكمية مجردة ، وانما هو عملية عقلية علمية** تقوم على ملاحظة المناسبة بين المشتق والمشتق منه بصرف النظر عن نوع المشتق . حتى انا لا نكاد نجد قيدا يمنع العرب من الاشتقاق من أية مادة معجمية ، كما أنا لا نكاد نجد مادة معجمية لم تكن عندهم صالحة كأصل للاشتقاق ، سواء أكانت هذه المادة اسما أو فعلا أو حرفا (٢١)

الاشتقاق فى العربية يقع فى الاسماء والافعال والحروف :

ولسنا نبالغ حين نقول ان تحكمات البصريين والكوفيين فى اصل الاشتقاق كانت بلا معنى ولا تمثل واقع اللغة التى لم يعرف أصحابها هذه القواعد المنطقية التى وضعها اللغات وحاولوا صب اللغة فى قوالبها ، فنحن نرى أصل الاشتقاق فى المادة المعجمية لا يخضع لهذه القواعد ، وانما يمضى على اساس ملاحظة المناسبة بين المشتق والمشتق منه ، سواء أكان المشتق منه اسما أو فعلا أو حرفا . وذلك على النحو الآتى :

١ — الاشتقاق من الاسماء :

فى المادة المعجمية لا يخضع الاشتقاق من الاسماء لقاعدة معينة فكل اسم قابل للاشتقاق ، وان كان ذلك لا يعنى ان كل اسم يجب ان يشتق منه ، وانما تلك مسألة متروكة للحاجة وظروف الاستعمال .

أ — الاشتقاق من أسماء العدد وأسماء الازمنة : فمن اسماء العدد : ثنيته أثنيته ثنيا ، صرت معه ثانيا ، وثنيت الشيء بالتثقيل : جعلته اثنين (المصباح المنير) ومن أسماء الازمنة : الاصيل : الوقت بعد العصر الى المغرب ، وآصلنا :

دخلنا فى الاصيل (لسان العرب)

ب — الاشتقاق من اسماء الاعيان :

١ — الأمكنة : الحرم ، واحرم القوم : دخلوا فى الحرم (اللسان) السراب : المسلك فى خفية أو الانسراب ، الدخول فى السرب (اللسان) الشرق : ناحية طلوع الشمس ، وشرقوا ذهبوا الى الشرق ، او أتوا الشرق (اللسان) .

٢ — أسماء القبائل : قيس قبيلة من مضر : تقيّس فلان : اذا تشبه بهم ، وتمسك منهم اما بحلف ، أو جوار ، أو ولاء (اللسان) .

٣ — أسماء الاقارب : الأب : أبوْت وأبيْت : صرت أبا ، وأبَوْته إباوَة : صرت له أبا ، ويقال : ما له أب يأبوه : أى يغذوه ويربيه ، وتأبَّيت أبا : أى اتخذت أبا (اللسان) .

٤ — أعضاء الجسم : اشتق العرب من أسماء الاعضاء أفعالا ، اما تصريحا أو ضمنا ومن هذه الافعال اشتقوا المصادر وجميع المشتقات ، ومن ذلك :

الإبط : باطن المنكب : وتأبط الشىء : وضعه تحت ابطه (اللسان) .

الأذن : عضو السمع : وأذَنه أذْنا فهو مأذون : أصحاب أذنه على ما يطرد فى الاعضاء ، وأذّنه أذْنَةً أى ضرب أذنه . ويقال : أذِنْت للشىء آذن له أذْنا : اذا استمعت له (اللسان) .

٥ — من الحيوان : الذئب : من الحيوان المفترس فيه خبث ودهاء وهو شبه الكلب فى الجسم : وذؤب الرجل ذآبة ، وذَئِب ، وتذاءب : خبث كالذئب خبثا ودهاء . وذُئِب الرجل ، فزع من الذئب ، وذأبته : فزعته (اللسان) .

من أشياء مختلفة :

الجيش : الجنود يسيرون لحرب أو غيرها : يقال جيش فلان ، أى جمع الجيوش ، واستجاشه : أى طلب منه جيشا (اللسان) .

الحبل : الرباط : وحبل الشىء حبلا شده بالحبل (اللسان) .

الخطام : كل ما وضع فى أنف البعير ليقاد به : وخطمه بالخطام يخطمه خطما ، وخطمه : كلاهما جعله على أنفه ، وكذلك اذا حز أنفه حزا غير عميق ، ووضع عليه الخطام (اللسان) .

هذا قليل من كثير قصدنا منه التدليل على ان الاشتقاق من الاسماء على اختلافها كثير جدا ، ولا يقع تحت حصر ، ولا يتصور أن تكون هذه الأسماء نفسها مشتقة عن أفعال أو مصادر ، لأنه لا توجد لها موازين ثابتة ، ولا طرق واضحة فى الاشتقاق يمكن أن توضع لها أقيسة مطردة ، كما هو الحال فى الأسماء المشتقة من المصادر أو الافعال .

ومما يقوى ان يكون الاشتقاق قد وقع فى الاسماء ابتداء دون ان تكون هذه الاسماء نفسها مشتقة من مصادر أو أفعال ، أن العرب قد عربوا أسماء أعجمية ثم اشتقوا منها مصادر وأفعالا ومشتقا وذلك عندهم كثير جدا ، ولا يعقل أن يكونوا قد اشتقوا من أفعال ومصادر هذه الأسماء فى مصادرها الأعجمية .

نماذج للاشتقاق من أسماء أعجمية :

الدِّرْهِم والدِّرْهَم لغتان ، فارسى أو يونانى (٢٢) معرب ملحق ببناء كلامهم ، ورجل مدرهم ولا فعل له : كثير الدراهم . حكاه أبو زيد قال : ولم يقولوا دُرْهِم . قال ابن جنى : لكنه اذا وجد اسم المفعول فالفعل حاصل ، ودَرْهمتِ الخُبّازى : استدارت فصارت على أشكال الدراهم فعلا وإن كان أعجميا ، قال ابن جنى وأما قولهم : درْهَمتِ الخَبّازى ، فليس من قولهم : الرَّجُل مُدَرْهم (اللسان) .

الفلفل : بالضم معروف لا ينبت بأرض العرب وقد كثر مجيئه فى كلامهم . وقد فَلْفل الطعام والشراب .. وثوب مُفَلْفَل : اذا كانت دارات وشبه مثل استدارة الفلفل وصغره ، وخمر مُفَلفَل أُلقِىَ فيه الفلفل ، فهو يحذى اللسان ، وشراب مُفَلفل : أى يلذع لَذْع الفُلْفُل (اللسان) .

الاشتقاق من الاسم الرباعى :

وقد أجاز النحويون الاشتقاق من الاسم الرباعى ووقوعه فيه . يقول جمال الدين أبو عبدالله محمد بن مالك فى كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد فى النحو (فصل) « انفرد الرباعى بفَعْلَل لازما ومتعديا لمعانى كثيرة . وقد يصاغ من اسم رباعى » (٢٣) ويقول سيبويه فى هذا باب تمثيل ما بنت العرب من بنات الأربعة فى الاسماء والصفات وغير مزيد ، وما لحقها من بنات الثلاثة كما لحقها فى الفعل ما يأتى : « فالحرف من بنات الأربعة يكون على مثال فَعْلَل ، فيكون في الأسماء والصفات ، فالاسماء نحو جعفر ، وعنبر ، وجندل ، والصفة : سَلْهَب ، وجَلْحَم . وعَلْقى ، ورعش ، وسبته ، وعنْسَل .

وهذا النحو لأنك لو صيرتهن فعلا كن بمنزلة الأربعة ، فهذا دليل ألا ترى انك حيث قلت : حَوْقلت ، وبَيْطرت ، وسَلْقيت أجريتهن مجرى الأربعة » (٢٤)

٢ — الاشتقاق من الحروف :

وقع الاشتقاق فى المعاجم من الحروف على اختلافها ، سواء أكانت حروفا للمعانى أو حروفا هجائية :

أ — حروف المعانى : من ذلك :

سوف : كلمة معناها التنفيس والتأخير ، قال سيبويه : سوف : كلمة تنفيس فيما لم يكن بعد ألا ترى أنك تقول : سوفته ، إذا قلت له مرة بعد مرة ، سوف افعل (اللسان) ، فأنت ترى أن هذا الحرف قد جاء منه الفعل سوَّف ويمكن تصريفها : يسوِّف : تسويفا وهو مُسَوِّف ...

نعم : قالوا : نعَّم الرجل ، اذا قال له نَعَمْ ، ونَعم كقولك بلى ، إلا أن نعم فى جواب الواجب ، وهى موقوفة الآخر ، لأنها حرف جاء لمعنى ، وفى التنزيل « هلْ وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا : نعمْ ، ونعمَ الرجلَ : قال له نعَمْ ، فينْعِم بذلك بالاً ، وأنْعَمَ له : أى قال له نعم » (اللسان)

ب — حروف الهجاء : من ذلك :

حرف التاء : رجل تأتاء على فَعْلاَل ، وفيه تأتأة : يتردد فى التاء اذا تكلم . والتأتأة حكاية الصوت (اللسان) .

حرف الفاء : الفأفاء على فَعْلال الذى يكثر ترداد الفاء إذا تكلم ، والفأفأة حبسة في اللسان ، وغلبة الفاء على الكلام ، وقد فأفأ ، ورجل فأفأ وفأفاء (يمدّ ويقصر) ، وامرأة فأفأة . قال الليث : الفأفأة فى الكلام كأن الفاء تغلب على اللسان فتقول : فأفأ فلان فى كلامه فأفأة ، وقال المبرد : الفأفأة : الترديد فى الفاء ، وهو أن يتردد فى الفاء إذا تكلم (اللسان)

الاشتقاق من الأفعال :

لسنا فى حاجة الى ذكر أمثلة من الاشتقاق فى الفعل فهو أشهر أنواع الاشتقاق ، وقد ادعى الكوفيون أن الفعل وحده هو أصل الاشتقاق ؛ وقد غلب رأيهم حتى أصبح هو القاعدة التى قامت عليها الموازين الصرفية على نحو ما سنرى .

رأينا فى أصل الاشتقاق :

واستنادا الى هذا العرض المعجمى يمكننا القول بأن الاشتقاق فى العربية هو اشتقاق شديد المرونة ، بحيث لا يمكن حصره فى أصل واحد أو ضبطه فى قاعدة ، وهذا الذى نذهب اليه قد ذهب اليه بعض المحدثين كما سبق ان ذكرنا ، بل قد ذهب اليه القدامى ، فقد ذكر السيوطى قول طائفة من المتأخرين اللغويين وهو : كل الكلم مشتق ، ونسب ذلك الى سيبويه والزجاج (٢٥) . وهذا لا يكون الا اذا اعتبرنا أن كل الكلم صالح كأصل للاشتقاق .

والذى نراه هو أن الاشتقاق فى العربية لا يرجع الى سبب وراء مناسبة المعنى بين المشتق والمشتق منه ، فكون المشتق منه اسما أو فعلا أو حرفا لا دخل له فى عملية الاشتقاق ذاتها ، فليس هناك أصل وفرع وإنما هناك مشتق ومشتق منه حسب المناسبة ، وكما يقول تمام حسان « الاشتقاق رد لفظ الى آخر لموافقته اياه فى حروفه الأصلية ومناسبته له فى المعنى » (٢٦) .

الدلالة الحضارية لمرونة الاشتقاق :

ولكن ما الذى تعنيه مرونة الاشتقاق فى العربية من الوجهة الحضارية .. ؟

للاجابة على هذا السؤال علينا ان نخلى عقولنا من تضليل المصطلحات الغربية والذى يتمثل :

أولا : فى هذا الفصل التعسفى والغريب بين اللغة وأصحابها .

وثانيا : فى التقسيم التعسفى للشعوب الانسانية الى بدائية ومتحضرة .

وثالثا : في تصنيف العرب قبل الاسلام — خاصة عرب الحجاز ونجد — فى الشعوب البدائية على أساس من التقسيم التعسفى السابق للشعوب .

ورابعا : فى المفاهيم القاصرة للبداءة والحضارة ، والتخلف والتقدم ، والرقى والتأخر .. انما اذا فعلنا ذلك ، ونجحنا فيه فسوف نهدم حواجز اصطناعية بيننا وبين الفهم الحقيقى للبشر والتاريخ والحضارات بوجه عام وبيننا وبين الامة العربية التى حملت أمانة الاسلام بوجه خاص .

ساعتها سوف تبرز أمام أعيننا القيمة الهائلة للغة العربية لا كأداة للتعبير فقط ، وإنما كقيمة حضارية على نفس الدرجة من الأهمية .

فأما الفصل التعسفى بين اللغة وأصحابها فانا لو نظرنا بعين العقل لا بعين التقليد فسوف يتبين لنا استحالة الفصل ، لأن اللغة أى لغة ، انما هى ترجمان لعقول أهلها ، وبيان عنها ، ولا نريد ان نخوض في قضية التوقيف والوضع فى اللغة ، والتى خاض فيها القدماء ، فذلك حديث طويل ليس هنا مجاله وانما نقول بانه قد ثبت بالخبر الصادق عن رب العالمين ان اللغات فى اصلها كانت تعليما من الله ، قال تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » البقرة : ٣١ ، وقال « خلق الانسان علمه البيان » الرحمن : ٣ ، ٤ .

أما نمو اللغات وتشعبها ، وإزدهارها وتقدمها ، أو ضمورها وإنزوائها ، وبمعنى آخر حياتها وموتها ، إنما هو رهن بأصحابها وعقولهم وظروفهم ، هذا ما ادركه علماء اللغات اليوم بالبحث والاستقراء والمقارنة ، يقول عبد الواحد وافى « فى الامم البدائية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك تفرز الكلمات الدالة على المحسات والامور الجزئية ، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتخلو القواعد أو تكاد من التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة ، والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة . وفى كثير من الامم البدائية ينعكس فى اللغة من مظاهر الاضطراب والابهام ما تمتاز به عقليات الناطقين بها من سذاجة وقصور ، حتى انها لا تكاد وحدها تبين عن معنى واضح وثيق .. » (٢٧) ، وقديما ادرك ذلك الامام الجليل ابن تيمية فى مقارنته لمنطق اليونان وفلسفتهم بلغة العرب والاسلام فقال « ان العقول اذا اتسعت واتسعت تصوراتها اتسعت عباراتها ، واذا ضاقت العقول والعبارات والتصورات كان صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان ، وهذا ما يصيب أهل المنطق اليونانى ..) (٢٨)

أما عن تقسيم الشعوب الى بدائية وحضارية فاننا نرفض هذا التقسيم أصلا ، لانه مبنى على اصل باطل وهو القول بالتطور بالمفهوم الالحادى الحديث والذى يذهب الى ان الانسان مجرد تطور للمادة الحية بمقتضى قوانين ذاتية تترقى بمقتضاها المادة من حالة الى حالة بصورة تلقائية خالصة لا تخضع فيها لاله خالق مدبر ، وينكر هذا المفهوم الخبر الصادق عن رب العالمين والذى يقرر فى صورة قاطعة ان آدم عليه السلام هو أبو البشر خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء وهداه الى الحق ...

ونحن لا نروى الخبر الصادق عن الله بتخيلات الملحدين ، ولا يعنينا ان يكون هذا التقسيم هو الاصل المستقر اليوم فى الدراسات التاريخية والحضارية ، لأن هذه الدراسات إنما انطلقت جميعها من مفهوم التطور الذى ينطلق من الايمان بالمادة الخالقة التى نكفر بها ونؤمن دونها بالله صاحب الخلق والأمر .

إنا لنا كمسلمين بناء على تعليم من ربنا منهج خاص فى قراءة التاريخ يسير فى عكس الاتجاه الذى يسير فيه التطوريون فيما يتعلق بحركة التاريخ وأصل الانسان وحقيقة الادبان

ليس هنا مجال بسطه وحسبنا ان نشير الى ان حركة التاريخ ليست هى بالقطع ما قال به اوجست كونت صاحب قانون المراحل الثلاث فى التاريخ الانسانى ، والتى تابعه فيها تلميذه دوركايم ثم شاعت فى الدراسات التاريخية والحضارية . ويكفينا هنا تعليق يوسف كرم « يفسر دوركيم المؤسسات والقواعد الاجتماعية طبقا لنظرية التطور ، فيبدأ بأبسط الصور ويسمى الجماعات التى نلاحظ عندها الصور بالبدائية ، فى حين ان المنهج العلمى يقضى بالقول بأن الحالة المسماة بدائية هى أبسط ما وصل الى علمنا من حالات لأنها الحالة الاولى تاريخيا . اذ قد تكون الانسانية بدأت على حالة عقلية متقدمة ، وقد تكون الجماعات التى نعتبرها الان بدائية منحدرة من جماعات متحضرة زالت عنها الحضارة فالاجتماعيون يعددون البسيط قديما وليس هذا بالضرورى ، ويعتقدون أنهم يؤيدون مذهب التطور وهم إنما يقبلونه مبدئيا » (٢٩)

أما بالنسبة لتصنيف العرب قبل الاسلام فى الشعوب البدائية (خاصة عرب الحجاز ونجد) فذلك جهل يجب ان نستعيذ بالله من شره .

ولست اريد هنا أن اتكلم عن حضارات اليمن وحضرموت أو حضارات العراق والشام ومصر فذلك موضوع سبق الى تقريره الغربيون أنفسهم . انما اتكلم عن عرب الحجاز ونجد أو عن الاسماعيليين الذين بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم ومنهم ، وبلغتهم نزل القرآن . وبهذه اللغة نحتج لهم فى هذا البحث .

ونقول جهل نستعيذ بالله من شره لانه جهل يؤدى الى خلل فى الاعتقاد ، اذ من الثابت بنصوص القرآن والسنة ان هؤلاء العرب أبعد الناس قاطبة عن البدائية حتى بالمفهوم الحديث ، فهولاء العرب — كما تواترت بذلك نصوص الكتاب والسنة — هم ابناء اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام أى أبناء أنبياء علماء حكماء ، يعد أبوهم إبراهيم فاصلا فى تاريخ البشر عقليا ودينيا ، فعلى لسانه ظهر كمال العقل الانسانى فى استدلالاته المشهورة التى رواها القرآن الكريم ، وسمى الله تعالى هذا الاستدلال حجة على الوثنيين علمه الله إياها قال تعالى « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه .. » وعد الله تعالى هذه الحجة درجات فى الفضل الانسانى « نرفع درجات من نشاء .. » الأنعام : ٨٣ فإبراهيم عليه السلام هو أكمل البشر عقلا ودينا بعد محمد صلى الله عليه وسلم سماه الله أمة وحده « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » النحل : ١٢٠/١٢١ .

وقد نص الله على اجتباء ابراهيم عليه السلام واصطفائه والإصطفاء من ذريته فقال « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » آل عمران : ٣٣ .

والعرب هم ابناء ابراهيم من اسماعيل عليهما السلام ، واسماعيل هذا هو الذى قال الله فى وصفه « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » مريم : ٥٤/٥٥ .

أما بالنسبة لمفاهيم البدائية والحضارة ، والتقدم والتخلف ، والرقى والتأخر فان علينا ان

نعرف ان هذه المصطلحات ليست تنزيلا من حكيم حميد يتحتم علينا التسليم به وإنما هي مصطلحات ورثناها من الفلسفة الاغريقية قديما ومن الفكر الغربي حديثا ، وتحديد هذه المصطلحات يقوم على تصورات تنبثق من واقع المجتمعات الغربية وظروفها ، ولم يأت تحديد هذه المصطلحات نتيجة استقراء حقيقي لانماط الحياة الانسانية ونشاطها ، ولم يأت من دراية كاملة بحركة التاريخ الانساني في ظروفه المختلفة ، كما انها لم تات من قواعد عامة مطردة تصلح للتطبيق في كل الظروف ومع كل الشعوب .

فمفهوم الرقي الفكري مثلا في اصطلاح الغرب القديم ينحصر في الفلسفة والمتفلسفين والفلسفة في شكلها النهائي . وان كانت تستند الى جذور في التفكير الانساني ، بمنطقها الخاص هي صناعة وضعية خاصة بالاغريق ، وتتناسب مع نوع النشاط العقلي الذي أتيح لهم ممارسته ، اما بالنسبة لنا فإن نشاطنا العقلي منذ اقدم العصور قد أخذ اتجاها خاصا ، وأصبح له نمط خاص تعبر عنه لغة اصطلاحات مختلفة .

ويكفي دلالة على فساد الاصطلاح وخصوصيته ان يكون الفيلسوف الذي عرفه تاريخ الغرب في هذا الاصطلاح ارقى عقلا من النبي الذي عرفه تاريخنا .. ! ! ، وهذا مرفوض دينا وعقلا . أما مصطلح التقدم والتخلف الحضاري فيكاد يرتبط في الاصطلاح الحديث — رغم المحاولات الجارية لتوسيعه — بالتقدم المادي .. ومن الغباء ان ننساق وراء تضليل هذا المصطلح فنحاول ان ندافع عن تاريخنا بانه عرف التقدم المادي ، فذلك الدفاع وان كان يمثل حقيقة تاريخية الا انه يؤدي الى نتائج شديدة الخطورة لانه يقدم الابداع المادي على الرقي الاخلاقي الذي يمثل الاساس في تقدمنا الحضاري ، والذي يعطينا على الغرب المادي ميزة لا تعادلها ميزة اخرى ، ان من شأن الانسياق الأعمى وراء هذا المفهوم - ونحن ننبه هنا الى ان لا ننكر قيمة الرقي المادي في اطار اخلاقي معين ، ولا نقلل من قيمته — يجرنا دون وعي الى احتقار الجانب الاكثر قيمة في تاريخنا .

اننا اذا طبقنا هذا الاصطلاح بمفهومه المادي على تاريخنا فسوف نسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق ، ونسلك اصحابه وهم خير جيل من البشر في عداد المتخلفين حضاريا ، وذلك لانهم عاشوا حياة مادية بسيطة خالية من التكلف او التعقيد في المأكل والمشرب والملبس والمسكن وطرائق الحياة المختلفة ، مع اننا انطلاقا من مفهومنا الخاص للحضارة نتخذ من هذا المظهر دليلا على سمو الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وعلى نبلهم وعظيم خلقهم .

اننا بهذا المفهوم لا نسيء الى تاريخ الاسلام وحده وانما نسيء الى تاريخ الانسانية كلها اذ نهدر بذلك قيمة اخلاقية قدرتها وأجلتها الانسانية عبر تاريخها وفي جميع عصورها وفي مختلف أديانها وهي قيمة الزهد في عرض الدنيا وأشيائها ومتاعها وأدواتها لا عن جهل بها ، ولا عن عجز عن استعمالها ، ولكن ادراكا لقيمتها الحقيقية وهي التغير والزوال ايثارا لما هو أبقى وهذه أعلى مراتب الادراك ، والقدرة على ضبط النفس وهي ارقى مراتب الاخلاق ايضا ..

ان علينا ان نستعيد ثقتنا فى انفسنا والتى فقدناها امام ضغط الفكر الغربي والحضارة الغربية ، اننا ان فعلنا ذلك تخلصنا من أسر المصطلحات ، التى استبعدت عقولنا لحساب فكر الغرب وحضارته ، هذه المصطلحات التى لا تمثل مقياسا انسانيا شاملا تقاس به الافكار والمعتقدات والحضارات — كما يزعمون — ، وانما تمثل وجهات نظر خاصة للافكار والمعتقدات والحضارات تمثل عقول مبتدعيها ، وقد توافق الحق او تخالفه فيما يتعلق بالاخرين . لو وثقنا فى انفسنا لتحررنا ، ولو تحررنا لرأينا الاشياء على حقائقها ، ولعرفنا انفسنا على حقائقها ، ولرأينا هذا العالم الباهر الذى تمثله لغة العرب ، والذى يمثل فكرا وحضارة وخلقا قل ان يوجد لها نظير ... هذا العالم المطمور تماما تحت ركام المصطلحات ، كما تطمر الآثار المادية تحت ركام التراب .

تقدير الباحثين المحدثين لمرونة الاشتقاق فى العربية :

فلننظر فى ضوء هذه الاعتبارات لقيمة الاشتقاق فى العربية كما تعترف بها الدراسات اللغوية المقارنة فى العصر الحديث بقول تمام حسان « ان الصيغة التى بنى عليها الاشتقاق او الميزان الصرفى للكلمة يكشف لنا عن خاصية تكاد تنفرد العربية بها ، وتدخل الصيغة فى الجدول كما تدخل الامثلة — أى الكلمات التى توزن عليها — فنحن نستطيع ان نصرف الصيغة من غير الاستعانة بأمثلتها ، وهذه خاصة من خواص اللغة العربية ، وربما كانت فى اللغات السامية ايضا ، مثال ذلك :

أنا	افتعلت	افتعل	
نحن	افتعلنا	نفتعل	
أنتَ	افتعلتَ	تفتعل	افتعل
أنتِ	افتعلتِ	تفتعلين	افتعلى
أنتما	افتعلتما	تفتعلان	افتعلا
أنتم	افتعلتم	تفتعلون	افتعلوا
أنتن	افتعلتن	تفتعلن	افتعلن
هو	افتعل	يفتعل	
هى	افتعلت	تفتعل	
هم	افتعلوا	يفتعلون	
هن	افتعلن	يفتعلن	

ومثل هذا يمكن ان يتم مع كل صيغة من صيغ الافعال ، فتكون نتيجة ذلك تصريفا فى داخل (مورفيم) الافتعال ، بحسب اختلاف الضمائر الشخصية التى يعبر منها عن (مورفيم) آخر ، هو المتكلم او الخطاب او الغيبة ، مع (مورفيم) الافراد او التثنية او الجمع . واكتفاء الصرف بالصيغة ، كاكتفاء الاصول بالصوت واكتفاء التشكيل بالحرف والمقطع ، هو استكفاء غرضه التحليل ، والا فليست هذه الا مفهومات منهجية ، لا تعبيرات باللغة . ونحن لا نتكلم اصواتا ، ولا حروفا ، (ولا مورفيمات) ، ولا صيغا ، وانما نتكلم جملا

مفيدة مركبة من هٰذه الاجزاء التحليلية ، التى يعتبر النظر المنهجى مسئولا عن اكثرها حيث يخلقها باعتبارها وسائل نفسية ، وادوات لتناول مادة اللغة تناولا يبنى على منهج خاص . فالصيغة جزء من المنهج لا من اللغة نفسها ، انك تقول « خرج محمد بالامس » فتتكلم عن شرط اللغة ، ولا تقول « فعل مُفَعَّل بالفَعْلِ » لأن هذا ليس من اللغة .

واللغة العربية محظوظة جدا بوجود هذه الصيغ الصرفية ، لأن هذه الصيغ تصلح لان تستخدم اداة من ادوات الكشف عن الحدود بين الكلمات فى السياق ، وتشكو معظم لغات العالم من عدم وجود مثل هذا الاساس الذى يمكن به ان تحدد الكلمات .

والباحثون فى لغات غير لغاتهم جديدة عليهم يعانون النصب والمشقة فى سبيل هذا التحديد فيعمدون الى كل الوسائل الممكنة يستخدمونها فى هذا الغرض ، ويظهر القسر والعسف فى استخدامها واضحا ، فأما اتخاذ الصيغة الصرفية أداة من أدوات خلق الحدود بين الكلمات فى السياق ، فميزة اللغة العربية من كبريات ميزاتها التى تفاخر بها .

وتساعد الصيغة فى الاعم الاغلب على تحديد الباب ايضا ، ذلك لان معناها الوظيفى هو (المورفيم) و (المورفيم) نفسه تعبير عن الباب ، فكان الباب احد معانى الصيغة غير المباشرة ، ومعنى هذا الكلام اننا اذا اخذنا « فاعل » فسنجد كل ما على مثالها داخلا فى باب الفعل الماضى الذى يدل غالبا على المشاركة ، ونقول غالبا احترازا من « سافر » . فالصيغة هنا دلت على النسب الى قسم من اقسام الكلام ، وهذه ميزة من ميزات اللغة العربية ايضا واعتماد هذه الدلالة هى ما يسميه علماء اللغة بالتحديد الجراماطيقى : »» Gramatical designation ««

المزايا اللغوية هى مزايا عقلية :

ولكن من أين جاءت هذه المزايا اللغوية فى الاشتقاق وفى اللغة العربية ، هل هذه المزايا نابعة من اللغة ذاتها ، ولازمة عنها .. ؟

لو قلنا بذلك لوقعنا فيما يقع فيه الملحدون فى الله ، حين يردون مزايا الطبيعة الى الطبيعة ذاتها ، ويقولون انها لازمة عنها بمقتضى قوانين ذاتية ، ففسروا الماء — كما قال شاعرنا » بعد الجهد بالماء ، وظنوا انهم بذلك قد حلوا معضلة الكون ، وهم لم يزد الامور الا خبالا ، فأثبتوا بذلك خبال عقولهم — وهم يظنون فى انفسهم انهم عباقرة الدنيا — ذلك ان اى عاقل سلم عقله من الخبال لا بد وأن يرد الآثار الى (فاعل ، مريد ، عالم ، قادر) ، فان قالوا نحن نقول بالفاعل المريد العالم القادر ، ونقول : هو الطبيعة ، قلنا لهم زدتم الامور خبالا لانكم قد جعلتم الاثر علة ذاته ، وهذا هو عين الخبال .

ولما كانت اللغة أثرا ليس علة نفسه وليس فعالا مريدا عالما قادرآ بذاته لزم من ذلك ان يكون معلولا لفاعل خارج عنه ، ولما كان العقل المبين كما خلقه الله تعالى هو علة اللغة كما ان الله الفعال المريد العالم القادر هو علة العالم والانسان ، لزم من ذلك أن تكون اللغة وآثارها. معلولة بصانعها ومبدعها وهو عقل الانسان الذى منحه الله القدرة على الابداع والاختراع ، ولا يعنى هذا مضاهاة قدرة الله بقدرة البشر . تعالى الله عن ذلك ، وانما يعنى القول بأن الله الذى يملك قدرة لا تحدها الحدود قد منح الانسان — فضلا منه وكرما — ان

قدرة محدودة وارادة محدودة وعلما محدودًا. يستطيع من بواسطتها ان يصنع وان يفعل فى حدود هذه القدرة الممنوعة من الله .

ومن ثم فمزية الاشتقاق فى اللغة جاءت، من مزية العقل الذى تصرف بها ، والمزية او المزايا العقلية التى يترجم عنها الاشتقاق فى اللغة العربية تتمثل فى مرونة عقلية عظيمة ، وطاقة واسعة من الخيال القادر على ادراك مختلف العلاقات الدقيقة ، والمناسبات المتنوعة بين الاشياء والاشياء ، وبين الاشياء والمعانى ، وبين المعانى والمعانى ، ثم مقدرة على التمييز الدقيق بين درجات هذه الفروق ، دون اضطراب او خلط ، ثم استيعابها جميعا فى وقت واحد دون قصور او اعياء ، او ارهاق ، مع ارهاف بالغ فى الحس يلمح ما خفى ، وما دق من الفروق والدلالات ، والاشارات ، هذا الارهاق البالغ فى الحس هو الذى ولد هذه القدرة الهائلة على التجريد ، الذى يختزل التفاصيل ، ويجرد الاشياء من خصوصياتها ليردها جميعا الى اصول عامة مشتركة لا تضيع فيها النسب والابعاد . هذه القدرات هى التى وسعت حدود الاشتقاق الى أبعد مدى ، وفتحت الباب لهذه الصيغ الصيغ المجردة التى لا يحتاج الاشتقاق فيها لكى يتغير المعنى الى اكثر من زيادة : حركة لتعطينا كلمة جديدة مثل : عِلْم ، وعَلِم .

أو مادة مثل : طالَب وطلَب ، او زيادتها معا مثل : ضارب وضرْب .
أو نقصان مثل : فرْس وفرَس ، او نقصان مادة مثل : ثبْت وثبات .
أو نقصانها معا مثل : نزا ونزوان ، او نقصان حركة وزيادة مادة مثل : غضبْى وغَضَب .
أو نقص مادة وزيادة حركة مثل : حرم وحرمان ، او تغاير حركتين مثل : بطِر بطَرا .
أو نقصان حركة وزيادة اخرى وحرف مثل : اضرب من الضرب .
أو نقصان مادة وزيادة اخرى مثل : راضع من الرضاعة ... (٣٢)

عن طريق هذه التغيرات البسيطة امكن اشتقاق مئات الألوف من الصيغ ، وفتح باب القياس لتستمر العربية فى نموها وازدهارها على نفس الاساس عبر الاجيال والعصور ، وفى مختلف الظروف ، وعن طريق هذه الامكانيات الهائلة اتسعت العربية للقرآن والاسلام ولمختلف العلوم والفنون والصناعات ، وما زالت قادرة على ان تتسع أبد الدهر لكل جديد من المعارف .

وما كان هذا الاتساع فى اللغة الا كما قال ابن تيمية بحق بسبب اتساع عقول أهلها واتساع تصورات هذه العقول .

فاذا جاء اليوم من يشكو من ضيق العربية وعجزها عن استيعاب مصطلحات العلوم والفنون والصناعات الحديثة ، فانا نرد عليه بان هذا العجز ليس عجزا فى اللغة ، وانما هو عجز فى عقول ابنائها ، نتج عنه ضيق فى اتساع هذه العقول ، وضيق فى اتساع تصوراتها ، وذلك بسبب ركون هذه العقول الى الكسل ، وكفها عن الابداع ، واضرابها عن الدربة والمرانة. وافتقارها الى الحياة والحركة ، وافتقارها الى الاستقلالية ، وركونها الى التقليد الذليل .

نخرج من كل ما سبق الى القول بأن المزية اللغوية فى الاشتقاق وغيره من خصائص العربية الباقية ، هى شاهد لا يكذب على عظمة العقلية العربية واتساعها ورقيها وابداعها ، وهى فى نفس الوقت شاهد على ان هذه العقلية قد قطعت قبل الاسلام شوطا طويلا فى التقدم والرقى عبر الممارسة والدربة والمران الى ان اكتملت فيها هذه الخصائص ونمت فيها هذه القدرات والملكات على أوفاها واتمها وابدعها من الحظ المقدور للعقل الانسانى .

وعليه نستطيع القول بان اللغة العربية هى شاهد تاريخي اوثق من كل الشواهد التاريخية على حضارة اهلها ورقى عقولهم ، وعلينا منذ الان ان نبحث عن حضارة الاسماعيليين فى هذه الوثائق اللغوية التى هى اكثر دلالة على العقل من دلالة آثار العمران ، لان اللغة هى البيان ، ولان البيان هو ترجمان العقل ، الذى ميز الله به الانسان عن سائر المخلوقات ؟

محمد رشاد خليل

مراجع وردت الإشارة اليها فى البحث

١ — (ابن تيمية) أحمد بن عبد الحليم ، تقى الدين ، أبو العباس (٦٦١ — ٧٢٨) ١ — موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول — تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، وحامد الفقى — مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م . ٢ — الرد على المنطقتين — ادارة ترجمة السنة — لاهور باكستان ، ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

٢ — (ولفنسون) — اسرائيل — تاريخ اللغات السامية — مطبعة الاعتماد — القاهرة ، ١٩٣٩ .

٣ — (كرملى) انستاس مارى ، الاب — المعجمية العربية على ضوء الثنائية والالسنة السامية — مطبعة الآباء — القدس ، ١٩٣٢ م .

٤ — (دكتور) تمام حسان — مناهج البحث فى اللغة — الانجلو المصرية — القاهرة ، ١٩٥٠ م .

٥ — (السيوطى) جلال الدين ، عبد الرحمن (— ٩١١ هـ) — المزهر فى علوم اللغة — الحلبى — القاهرة ، ١٩٤٥ م .

٦ — (ابن جنى) عثمان ، ابو الفتح (— ٣٩٢ هـ) — الخصائص — الهلال — القاهرة ، ١٩١٣ م .

٧ — (الأنبارى) عبد الرحمن ، كمال الدين ، أبو البركات (— ٥٧٧ هـ) — الانصاف فى مسائل الخلاف — ليدن ، ١٩١٣ هـ .

٨ — عبدالله أمين ـ الاشتقاق ـ لجنة التأليف ـ القاهرة ١٩٥٦

٩ — (دكتور) على سامى النشار ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام دار المعارف مصر ـ ١٩٦٦

١٠ — (دكتور) على عبد الواحد وافى — اللغة والمجتمع — الحلبى — القاهرة ، ١٩٤٦ م .

١١ — (سيبويه) عمرو بن عثمان بن منبر ، ابو بشر (— ١٨٠ هـ) — كتاب سيبويه — الأميرية — القاهرة ، ١٣١٦ هـ .

١٢ — (دكتور) فؤاد حسنين — تاريخ اللغات السامية — كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

١٣ — (فندريس) ج — اللغة — تعريب الدواخلى والقصاص — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة .

١٤ — (ابن دريد) محمد عبد الحسن ، أبو بكر (— ٣٢١ هـ) — جهرة اللغة . حيدر أباد ، ١٣٤٤ هـ .

١٥ — (ابن منظور) محمد بن مكرم ، جمال الدين (— ٧١١ هـ) — لسان العرب ، الاميرية — القاهرة ، ١٣٠٠ هـ .

١٦ — (الحدالبقى) موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، أبو منصور (— ٥٤٠ هـ) المعرب من الكلام الأعجمى — دار الكتب — القاهرة ، ١٣٦١ هـ